صورة الآخر في قصيدة ليس الغريب - دراسة تحليلة -

The Image of the Other in the Poem “Not the Stranger” An Analytical Study

م.م مهند صالح مهدي

وزارة التربية/ المديرية العامة لتربية بغداد الكرخ الأولى

البحث والتطوير

Mohand.salh.2022@gmail.com

الملخص:

هناك صراع كبير في نسب بعض القصائد المشهورة، وتلعب الحزبية والتعصب دورا واضحا في تلك المعركة، فكل طرف ينسب قصيدة ما إلى حزبه، وقصيدة ليس الغريب ذاع صيتها وانتشر، فبعضهم نسبها إلى الإمام زين العابدين(ع) (ت/٩٥هـ) ومنهم من نسبها إلى القاضي -لمطهر بن يوسف -لحماطي (ت الحادي عشر)ومنهم من نسبها للعلامة عبد -لخالق -لحفظي (ت/١٢٨٤هـ).وصورة الآخر أسلوب نقدي حديث يعنى بكشف الانعكاس الآخر في الذات، والموقف الذي تتبنها تلك الذات تجاه ذلك الآخر، واصل الموضوع جاء من مباحث الفلسفة وعلم النفس.

ويكشف البحث عن صورة الآخر في قصيدة ليس الغريب، عن التصورات التي تتصارع داخل النفس وتنعكس، وتدعو في الوقت نفسه إلى تبني أفكارا معينة.

الكلمات المفتاحية: الآخر / الصورة / الذات

Abstract

There is a great conflict in the lineage of some famous poems, and partisanship and fanaticism play a clear role in that battle. To Judge Al-Mutahar bin Youssef Al-Hamati (died eleventh), and some of them attributed it to the scholar Abdul-Khaliq Al-Hafzi (d. ١٢٨٤ AH.(

The image of the other is a modern critical method that is concerned with revealing the other reflection in the self, and the position adopted by that self towards that other. The subject matter came from the investigations of philosophy and psychology.

The search for the image of the other in a poem -Not the Stranger- reveals the perceptions that struggle within the soul and are reflected, and at the same time call for the adoption of certain ideas.

Keywords: the other / image / self

المبحث الأول
الحضور والغياب في قصيدة (ليس الغريب)

❖ الغربة بوصفها آخر

قال:

لَيْسَ الغَريبُ غَريبَ الشَّأمِ واليَمَنِ ... إنَّ الغَريبَ غَريبُ اللَّحدِ والكَفَنِ

إنَّ الغَريبَ لَهُ حَقٌّ لِغُرْبَتِهِ ... على المُقيمينَ في الأَوطانِ والسَّكَنِ

سَفْري بَعيدٌ وَزادي لَنْ يُبَلِّغَني ... وَقُوَتي ضَعُفَتْ والموتُ يَطلُبُني

إن هذه هي الأبيات الثلاثة الأول من القصيدة (مطلع القصيدة) وقد تجلت فيها الغربةٌ بأشد صورها وأصعب معانيها، وهي غربة الموت والقبر، والسفر البعيد من الدنيا إلى الآخرة. واستعمل الشاعر « القوة المتخيلة رغم كلما يمكن ان تمتدح به مقيدة بقيود الحس؛ وذلك لان الحس هو المنشأ والمبتدأ بالنسبة لها، ولا يمكن التخيل ان تنطلق وتتحرك من دون مدركاته ومعطياته»[1]

وتكررت ألفاظ الغربة ومرادفاتها على النحو الآتي (الغريب) ثم (الغربة) ثم (السفر البعيد).

والشاعر هنا اتخذ من الغربة آخر، مثل له في البيت الأول بصورتين، فالصورة الأولى هي صورة المغترب في الدنيا، الذي يسافر إلى الشام أو اليمن، ثم أكد أنَ هذه ليست الغربة الحقيقية، وأن المسافر إلى بلدٍ من البلدان ليس غريباً؛ بالمعنى الذي يمثله الوجه الآخر من الغربة، وهي الغربة الحقيقية، غربة اللحد والكفن.

ثم يبرر الإمام الشاعر للمغترب في الدنيا سهولة غربته وهوانها وبساطة المشقة مهما كانت؛ لأنّه إذا كان مسافراً مغترباً في هذه الحياة الدنيا؛ فإنه سيجد بين المقيمين في البلد التي يسافر إليها يد العون والمساعدة ، مما يهون عليه مشقة السفر ووحشة الغربة.

أما المرتحل عن هذه الدنيا فإنه سينزل إلى قبره، ويستقر في لحده وحيداً فريداً، فلا مقيم يمد له يد العون، ولا قريب يؤنسه في وحشة القبر، وهذه الغربة هي الغربة الحقيقية، أو هي الآخر القاسي، الذي

(١) الصورة الفنية في التراث النقد والفني عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٣، ١٩٩٩٢ : ٤٢

لا يشفع عنده إلا العمل الصالح.

ثم ينتقل الشاعر في البيت الثالث إلى رثاء نفسه والتحسر عليها، والإشفاق عليها من آخر شديد الوحشة، بعيد الشقة وهو السفر البعيد، الارتحال من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة على قلة الزاد والمؤونة، والزاد هنا يعني التزود بالأعمال الصالحة، فإنها هي المؤنس الوحيد الذي يهون مشقة هذا السفر البعيد، ويذلل صعوبات ذلك الطريق الموحش، الذي تنقطع فيه كل الأسباب، ويفتقد فيه جميع الأحباب، ويعرف الإنسان فيه معنى الوحدة والوحشة.

وقال:

في ظُلْمَةِ القبرِ لا أُمٌّ هناك ولا أَبٌ شَفيقٌ ولا أَخٌ يُؤَنِّسُني

وَهالَني صُورَةً في العينِ إِذْ نَظَرَتْ مِنْ هَوْلِ مَطْلَعِ ما قَدْ كان أَدهَشَني

مِنْ مُنكَرٍ ونكيرٍ ما أَقولُ لهم قَدْ هالَني أَمْرُهُمْ جِداً فَأَفْزَعَني

وهنا تتكشف الغربة الحقيقية التي تحدثنا عنها آنفاً، بعد أن يستقر الإنسان في قبره، فسوف يتعرف بذلك الآخر الموحش، ذلك المكان الضيق المظلم، الذي ليس فيه لا أمٌّ و لا أبٌ و لا أخٌ، فيبدأ باستعادة شريط الذكريات ف» الشوق والحنين إلى الماضي هو واحد من سلوكيات غير واعية يطرأ على الشاعر أو الكاتب، ويظهر هذه الظاهرة، الظاهرة تحت تأثير العوامل الفردية والاجتماعية ، كفقد الأسرة والحبس والنفي والتحسر على الماضي والهجرة وخطورة الذكريات المتعلقة بالطفولة والشباب على البال، فيلجأ الشاعر إلى ماضيه»[1] فليس من مؤنسٍ ولا من مشفقٍ، بل يُترك الإنسان فيه وحيداً في مكان لم يألفه من قبل.

وتأتي ساعة الحقيقة الصادمة التي تزيد من هول الغربة وتضاعف الشعور بالوحشة، إنها تلك الصورة المرعبة، إنها صورة الملكين (منكرٌ و نكير)، فإنّ لهما صورةً مخيفةً، وصوتاً مرعباً، فيشتد الفزع بالغريب و وتتوالى عليه الأهوال إلا من ثبته الله تعالى، وآنسه عمله الصالح.

وقد نجح الشاعر في تصوير الغربة هنا بوصفها آخر، لم يألفه قلب بشرٍ من قبل، ولم تره عين إنسانٍ، ولكنه كان في طيات علم الغيب، ومهما سمع الإنسان من أخبار تلك الغربة فإنه لن يعرفها حق المعرفة

(١) ظاهرة الانستالوجيا في شعر امرئ القيس ، صديقه جعفري نثرا، مجلة كلية التربية الاساسية للعوم التربوية الاسلامية ، جامعة بابل، العدد ٣٤ ، ٢٠١٨م: ٢٦٣

إلا إذا حل هناك ورأى بعينيهِ.

وقال:

فَلا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيا وَزِينَتُها وانْظُرْ إلى فِعْلِها بالأَهْلِ والوَطَنِ

وانْظُرْ إلى مَنْ حَوَى الدُّنْيا بِأَجْمَعِها هَلْ رَاحَ مِنْها بِغَيْرِ الحَنْطِ والكَفَنِ

ونختم الكلام عن الغربة بوصفها آخر في هذين البيتين، فالإمام هنا يوجه إلى جنس بني الإنسان نصيحةً غاليةً، فيقول له لا تغتر بهذه الدنيا الزائلة، ولا تعجبك زينتها وبهرجها، فإنك فيها راحل غريب، وإن دارك الحقيقية هي تلك الدار التي سترحل إليها عما قريب.

يحثه على أن يتعظ بمن رحلوا قبله ويرى فعلها بهم فانهم ما أن غادروا هذه الدنيا حتى أصبحوا في طي النسيان فقسمت الاموال، وسُكنت الديار، وخرجوا منها بالكفن والحنوط لا غير ، فيالها من غربة، ويالهذه الدنيا من غرورة خداعة، هو يأتي اليها الانسان وحيداً، ويرتحل عنها وحيداً، والاخرة هي دار البقاء.

❖ الذات بوصفها آخر

بدأ واضحاً أنّه « لا يمكن أن توجد الأنا بدون الآخر، والعكس صحيح، فهما، وإن تباعدا وتنابذا، يتفاعلان، فيما بينهما سلباً أو إيجاباً بالنظر إلى علائق القوى التي تنمح الغلبة لطرف على حساب الطرف الآخر[1].

قال :

أَنَا الَّذِي أُغْلِقُ الأَبْوابَ مُجْتَهِداً عَلى المعاصِي وَعَيْنُ اللهِ تَنْظُرُني

علاقة الذات مع الآخر لا تنحصر بحدود، فهي تتصور بصور مختلفة، كم بدأ واضحاً أنّ الأنا حاضرة في هذا البيت في الضمير المنفصل (أنا)، والضمير المتصل (الياء) في قوله (تنظرني)، وفي الفعل المضارع (أغلق) الذي ورد بصيغة التكلم، وهذا من الأمور المعلومة بالضرورة.

وأما وصف هذه الأنا بكونها آخر فنجده في الأسلوب الذي استعمله الإمام بتوجيه اللوم إلى هذه الأنا وتوبيخها بوصفها تلك النفس التي تقيم على المعاصي وتغلق الأبواب مجتهدةً أن لا يراها أحدٌ من

(١) صورة الانا والآخر في السرد، د. محمد الداهي، ٢٠١٣ : ١١.

الناس في حين أن لا شيء يغيب عن عين الخالق تعالى، وهذا من الحكمة التي أوتيها ذلك الإمام رضي الله عنه.

وهذا واضح « فالعلاقة بين الذات والآخر قد تكون علاقة فردية (الأنا – الأنت) تحددها ثنائية الوجود» [١]، اما هنا يصف الانا العاصية المرتكبة للذنوب، وعودتها الى الانا الصالحة.

ومما يعزز كون الأنا في هذا البيت ينطبق عليها الوصف بالآخر أنَّ الإمام قد عرف بالصلاح والزهد، وليس ممن يرتكبون المعاصي ولكنه أراد أن يوجه اللوم والتأنيب إلى العصاة من الأمة بأسلوب الأدب العالي الذي يضع نفسه موضع اللوم تجنباً للوم الآخرين، أو لنقل يبدأ بنفسه قبل الآخرين لكي لا يكون موضع انتقادهم.

وقال الإمام:

دَعْني أَنُوحُ عَلى نَفْسي وَأَنْدُبُها ... وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالحَزَنِ

دَعْ عَنْكَ عَذْلِيَ يا مَنْ كانَ يَعْذُلُني ... لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ ما بِي كُنْتَ تَعْذِرُنِي

دَعْنِي أَسُحُّ دُموعًا لا انْقِطاعَ لَها ... فَهَلْ عَسَى عَبْرَةٌ مِنْهَا تُخَلِّصُني

وهذا المقطع من القصيدة وان جاء في صيغة الخطاب , إلا أنّ الأنا حاضرة فيه في الضمائر المتصله والمستترة (دعني) (أنوح) (نفسي)(اندب)(أقطع)(عذلي) (يعذلني) (مابي) (تعذرلي) (أسح) (تخلصني) وغيرها .

لهذا بدا واضحاً «الكلام عن الاخر يقابله في نفس الوقت (الذات أو الأنا) إذ أن بين هذيين المصطلحين علاقة متبادلة لا يمكن فصلها، فهي مبنية على أساس نفسي من خلال تعامل كل منهما مع الاخر، فإلانا هي الذات بالمفهوم العام أي ذات الشخص المتحدث، والآخر كل ما هو خارج هذه الذات وكل منهما يحلل شخصية المقابل على أساس ما تنطوي عليه مشاعره تجاه هذا الآخر أو الذات أو أن الآخر هو ما تنعكس فيه صورة الذات من جوانبها المتعددة النفسية، والفكرية، والاجتماعية»[٢].

(١) الذات والآخر في شعر لسان الدين الخطيب، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، كلية التربية، الباحث عصام حميد حمد يوسف، ٢٠١٣ : ٢٤.

(٢) الذات والآخر في شعر لسان الدين بن الخطيب، عصام حميد حمد يوسف الدليمي، جامعة تكريت، جمعة حسين يوسف الجبوري، ١٤٣٤هجري-٢٠١٣م : ١.

فالشاعر هنا لا يخاطب اخر منفصلاً عنه، ولكنه يخاطب ذاته او قل نفسه ، فقد انقسمت الذات هنا بين اللائم والملوم، وبين المعاتِب والمعاتَب ، وبين الموبخ ، والمعتذر، فقد جرد من نفسه لائماً يلومه على الغفلة والعصيان، فراح يجيب ذلك اللائم بقوله دعني فأنت ترى ما بلغ مني الندم ، والحسرة ، وتعلم ما أنافيه من الحزن والتذكر والندب على نفسي ، دعني فبالرغم مما ترى من الدموع والبكاء إلا أنك لا تعلم ما أنا فيه من الندم والتحسر . وكأنه في هذا الخطاب يقول لنفسه دعي عنك هذا اللوم يا نفسي ، متجرد من الذات أخراً يلوم ويعاتب ويسمع الاعتذار.

وقال:

كَأَنَّنِي بَينَ جل الأَهلِ مُنطَرِحاً عَلى الفِراشِ وَأَيْديهِمْ تُقَلِّبُني

وَ قَدْ تَجَمَّعَ حَوْلي مَنْ يَنوحُ ومَنْ يَبْكي عَلَيَّ ويَنْعاني ويَنْدُبُني

انقسمت هنا بشكل واضح صورة الآخر إلى نوعين» النوع الأول حاول من خلاله الشعراء-استحياءً- أن يتحدثوا عن أنفسهم من خلاله، ونعني أنهم استعاروا شخصية افتراضية من الآخر، هي في الحقيقة تمثلهم، أما النوع الثاني ، وهو النوع المهم الذي ظل في القصيدة في حالة، الغيرية، والسوائية»[1].

وهنا أيضاً جرد الشاعر من نفسه نفساً أخرى كأنه ينظر إليها وقد دنت ساعة الحقيقية، واقترب الوعد الحق، ودخلت تللك النفس في غمرة الموت وسكراته، فالجسد منطرحٌ على الفراش والروح تغرغر، والاهل من حوله بين باكٍ ونائحٍ ونادبٍ، وبين من يقلبه فيجلسه تارة ويضجعه أُخرى، متمنين له ألشفاء، خائفين من فقده وفراقه . وذاته المجردة من نفسه تنظر الى ذلك الموقف حزينة مشفقةً على نفسها، وكان اخر مغايراً منفصلاً عنه ، وهي صورةٌ مفعمة بالعاطفة والخيال، فالعاطفة تتجلى في ذلك الحزن والإشفاق على النفس والخوف عليها من ذلك الموقف الرهيب، والخيال يتمثل بأروع صورة في تجريد ذاتاً أخرى من الذات ترقبها وتحزن عليها وتندب عليها موقفها العصيب، وهي من صور الاخر النادرة في الشعر العربي .

ويستمر المشهد مع الذات التي جردها الشاعر من نفسه، والتي ترقب المشهد الاخير مشهد الرحيل الابدي، اذ يقول :

(١) التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، احمد ياسين السليماني : ٤٩١.

وَ قَدْ أَتَوْا بِطَبيبٍ كَيْ يُعالِجَني وَلَمْ أَرَ الطِّبَّ هذا اليومَ يَنْفَعُني

واشَتد نَزْعِي وَصَار المَوتُ يَجْذِبُها مِن كُلِّ عِرْقٍ بِلا رِفقٍ ولا هَوَنِ

واستَخْرَجَ الرُّوحَ مِني في تَغَرْغُرِها وصارَ رِيقي مَريراً حِينَ غَرْغَرَني

ها هي الذات المجردة تنظر الى جسدها وهو يصارع آخر سكرات الموت، فالطبيب الذي جاءوا به لا يملك شيئاً من أمر الله تعالى، وقد اشتد النزع، وصار الموت يجذب الروح من العروق، بلا رفق ولا هوادة حتى استخرجها، وهي تغرغر وأصبح الريق حريراً من شدة وقع الغرغرة والنزع، كلُّ ذلك والآخر المتمثل في الذات المجردة من نفس الشاعر ترقب المنظر في ما يشبه مشهداً من مسرحية حزينة مؤلفها ومخرجها وبطلها واحد هو الإنسان.

المبحث الثاني
الموت و الحياة في قصيدة (ليس الغريب)

❖ الحياة بوصفها آخر

تعددت في قصيدة الإمام السجاد صور الحياة والموت، فأما الحياة فقد تباينت صورها بين حياة الغافل اللاهي الذي غفل أو تغافل عما بعد الموت من الحساب فمرت ساعات أيامه في اكتساب الذنوب والمعاصي، وذلك في قوله:

تَمُرُّ ساعاتُ أَيّامي بِلا نَدَمٍ ولا بُكاءٍ وَلاخَوْفٍ ولا حزَنِ

أَنَا الَّذِي أُغْلِقُ الأَبْوابَ مُجْتَهِداً عَلى المعاصِي وَعَيْنُ اللهِ تَنْظُرُني

فقوله (تمر ساعات أيامي) إشارة إلى عمره الذي أنقضى في لهو وغفلة، وحياته التي ضاعت سدىً، وما عمر الإنسان وما حياته، بل وما هو الإنسان إنه عبارة عن دقائق وساعات وأيام، فالوقت هو كل شيء وهو أثمن شيء في الحياة، والحياة بهذا المعنى هي ذلك الآخر الذي ضاع وتشتت بين الملذات والملهيات. وهي أيضاً تعدُّ آخر في مقابل الموت الذي سيأتي فجأة فيقطع هذه الغفلة فينتبه الناسي ويصحو النائم ولكن بعد فوات الأوان.

وتتجلى صورة الحياة بوصفها آخر في بيت آخر ن القصيدة، وذلك قوله:

خُذِ القَناعَةَ مِنْ دُنْيَاك وارْضَ بِها لَوْ لم يَكُنْ لَكَ إلا رَاحَةُ البَدَنِ

فكلمة (دنياك) هنا ما هي إلا حياتك و أيامك التي تعيشها في هذه الدنيا. قبل الانتقال إلى الحياة الآخرة بحياة البرزخ. وهذه الحياة التي نعيشها في الدنيا هي عند الشاعر ذلك الآخر الذي تحفه الشهوات والملذات التي تودي بالغارق فيها إلى الهلاك، ومن هنا صار لزاماً على الانسان أن يأخذ بالقناعة ويكتفي بالقليل، ليسلم لدينه وأخره.

وهناك صورة ثانية من صور الحياة بوصفها آخر نجدها حاضره في هذه القصيدة في أكثر من موضع ألا وهي الحياة بعد الموت. وهذه الحياة تكون على مرحلتين وتتجلى في صورتين كلاهما يمثل الآخر في مقابل الحياة الدنيا.

الأولى هي حياة البرزخ في القبر وتبدأ بموت الإنسان ووضعه في قبره، وتنتهي بقيام الساعة، والثانية هي الحياة في الآخرة بعد قيام الساعة، وتنقسم إلى صورتين أيضاً وكما سنبين لاحقاً؛ فأما حياة البرزخ فتبدأ في القصيدة من قوله:

وَأَنْزَلوني إلى قَبري على مَهَلٍ وَقَدَّمُوا واحِداً مِنهم يُلَحِّدُني

إلى قوله:

وَهالَني صُورَةً في العينِ إذْ نَظَرَتْ مِنْ هَوْلِ مَطْلَعِ ما قَدْ كان أَدهَشَني

مِنْ مُنكَرٍ ونكيرٍ ما أَقولُ لهم قَدْ هالَني أَمْرُهُمْ جِداً فَأَفْزَعَني

فمنذ اللحظة الأولى من نزول الميت إلى قبره تبدأ حياة أخرى هي حياة البرزخ، وهي مرحلة حرجة في رحلة الإنسان بين الدنيا والآخرة؛ لإنها هي التي تحدد مصيره بعد ذلك إما إلى جنة وإما إلى نار، فبعد أن تتم مراسم الدفن وينطلق الأهل راجعين يستفيق الميت على وقع صورة عظيمة وأصوات مخيفة هي أصوات الملكين منكر ونكير وصورتها، فهما ملكان عظيمان صورتها مخيفة وأصواتها شديدة يجلسان الميت فينتهرانه انتهاراً شديداً ويسألانه أسئلة مصيرية، وعلى حسب إجابته تكون حياته في البرزخ فإما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار، يعيش فيها إلى أن تقوم الساعة.

فهذا الحياة الأبدية التي يعيشها الإنسان من ساعة دفنه إلى قيام الساعة هي تمثل ذلك الآخر في مقابل الحياة الدنيا.

وأما الصورة الثانية من الحياة التي تقابل الحياة الدنيا، فهي حياة ما بعد البعث ما بين حساب ووقوف بين يدي الجبار سبحانه ما بعد ذلك إما إلى جنة أو نار.

وهذه الحياة لم يتطرق إليها الإمام الشاعر في هذه القصيدة ولكنه أوصى إلى مقدماتها بقوله:

يَا زَارِعَ الخَيْرِ تحصُدْ بَعْدَهُ ثَمَراً يَا زَارِعَ الشَّرِّ مَوْقُوفٌ عَلَى الوَهَنِ

زارع الخير في هذه الحياة الدنيا، المؤمن الملتزم بتعاليم ربه سبحانه وتعالى، فائزٌ في تلك الحياة الآخرة يحصد ثمرة ما قدم وزارع الشر في هذه الحياة، موقوف على الوهن والخوف في تلك الحياة الآخرة.

حاصل ما تقدم أن في القصيدة ثلاث صور من صور الحياة، صورة الحياة الدنيا بوصفها آخر؛ لأنها دار العمل والجد والاجتهاد أو هي دار الغفلة والنسيان والتفريط. وصورة حياة البرزخ بوصفها آخر يكون الإنسان فيها في حفرة مظلمة أو روضة مزهرة وبحسب ما قدم لها. والصورة الثالثة صورة الحياة الأخرة ما بعد البعث والحساب فإما إلى جنة و إما إلى نار.

❖ صورة الموت بوصفه آخر

الموت هو ذلك الآخر الغريب المبهم، الذي لا يعرف الإنسان عنه شيئاً إلا أنَّه يخاف منه؛ لأنه ذلك الانتقال من هذه الحياة الدنيا التي يعيشها ويعرفها إلى حياة أخرى يجعلها تماماً، و لا يعرف عنها شيئاً، ولا يعلم إلى أي مصير سيؤول فيها، أهو الشقاء والبؤس أم السعادة الأبدية، فالموت هو الحقيقة المجهولة بالنسبة للإنسان.

وصورة الموت حاضرة في قصيدة (ليس الغريب) للإمام زين العابدين بن علي رضي الله عنه في أكثر من مشهد، و أكثر من موضع فهو يفتتح القصيدة بذكر اللحد والكفن وهي إشارة إلى الموت وموضع الإنسان في قبره بعد الموت، وبعد ذلك يصرح بذكر الموت فيقول:

سَفْرِي بَعيدٌ وَزادي لَنْ يُبَلِّغَني وَقُوَتي ضَعُفَتْ والموتُ يَطلُبُني

والسفر هنا كناية عن الانتقال عند الموت من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، وذلك يكون بالموت، ثم ذكر بعد ذلك علامة من علامات اقتراب الموت وهي علامة الضعف والوهن (وقوتي ضعفت)، ثم

قال بعد ذلك (والموت يطلبني) إذن فالموت هو ذلك الآخر الذي يطارد الإنسان منذ ولادته إلى أنْ يحين الأجل المحتوم، والإنسان طوال حياته مهما نسي أو تناسى في قرارة نفسه خائفٌ وجلٌ من ذلك الطالب الذي لا ينثني ولا يتراجع، والآخر الذي يقهر ولا يُقهر.

وفي موضع آخر من القصيدة بعد ذكر المرض والضعف وعلامات الموت، واشارات اقترابه، يصدح الشاعر أيضاً بذكر الموت مرة أخرى فيقول:

واشتد نَزْعِي وَصَار المَوتُ يَجْذِبُها مِن كُلِّ عِرْقٍ بِلا رِفقٍ ولا هَوَنِ

الموت هنا كناية عن (ملك الموت) فالذي يجذب الروح وينتزعها هو ملك الموت، أما الموت نفسه فهو مصدر مات يموت، أو هو في المعنى اللغوي عملية خروج الروح من الجسد ومفرقتها له، أما الفاعل الذي يسحب الروح من الجسد فهو ملك الموت وهو جندي مأمور من من جنود الله تبارك وتعالى.

وقوله (يَجْذِبُها مِن كُلِّ عِرْقٍ بِلا رِفقٍ ولا هَوَنِ) وصف مخيف لصورة مرعبة هي صورة ذلك الآخر الذي يحل بالإنسان مصحوباً بالكرب والشدة والألم الشديد، فالشاعر هنا يصور انتزاع الروح من العروق بقوة ليس فيها رفق، وشدةٍ ليس معها تهاون، فملك الموت مأمور بالانتزاع، واروح مأمورة بالطاعة والاستجابة، و الإنسان في موقف لايحسد عليه من الخوف والألم.

فالموت إذاً هو ذلك الآخر المجهول والمرعب في الوقت نفسه، والمبهم المخيف في ذاك الوقت.

بعد انتزاع الروح من الجسد، يصبح الجسد جثه هامد، لا حياة فيها ولا حراك، ولا سمع ولا بصر ولا نفس، ولا أيَّ شيء من علامات الحياة، فيبدأ هنا دور الأهل في تجهيز الميت ودفنه، وقد سرد الشاعر الإمام هذه المشاهد بطريقة سلسلة تنم عن قريحة عبقرية، وسليمة وخيال رحب واسع. فهو يقول:

وَأَوْدَعوني عَلى الأَلْواحِ مُنْطَرِحاً وَصارَ فَوْقي خَرِيرُ الماءِ يُنْظِفُني

وَأَسْكَبَ الماءَ مِنْ فَوقي وَغَسَّلَني غُسْلاً ثَلاثاً وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ

وَأَلْبَسُوني ثِياباً لا كِمامَ لها وصارَ زَادِي زَادي حَنُوطِي حينَ حَنَّطَني

وأَخْرَجوني مِنَ الدُّنيا فَوا أَسَفاً عَلى رَحِيلٍ بِلا زادٍ يُبَلِّغُني

وَحَمَّلوني على الأكْتافِ أَربَعَةٌ مِنَ الرِّجالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُني
وَقَدَّموني إِلى المحرابِ وانصَرَفوا خَلْفَ الإِمامِ فَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَني
صَلَّوْا عَلَيَّ صَلاةً لا رُكوعَ لها ولا سُجودَ لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُني

والالفاظ (أدعوني) (غسلني) (ألبسوني) (حنطني) (أخرجوني) (حملوني) (قدموني) (ودعني) (صلوا علي) كلها تشير إلى أنَّ هذه الأفعال لادور للميت فيها، فهو جثةٌ هامدةٌ مسلوبة الإرادة، يتقلب بين إيدي الأهل و لأصحاب، فمنهم من يغسله ومنهم من يلبسه الكفن ومنهم من يحمله على الاكتاف، ثم يصلون عليه صلاة الجنازة ثم يودعنه مثواه الأخير، الذي إما أن يكون دار شقاء أو دار سعادة، وقد انتهت حياته وانقطع عمله واستسلم للموت القاهر (هادم اللذات) ومفرق الجماعات، ذلك الآخر الذي لايقوى على مقارعته أحد.

المبحث الثالث
الزمان والمكان في قصيدة (ليس الغريب)

❖ الزمان بوصفه آخر

تتعدد صور الزمان في الشعر والنثر، وأشكال الخطاب الأخرى فالزمان يمثل صورة الحياة عند الملقي والمتلقي على حد سواء. فهناك زمان سعيد وزمان حزين، زمان بعيد وزمان قريب، زمان موحش مخيف، وزمان أمن و اطمئنان وهكذا وهذه الصور على اختلافها حاضرة في الشعر عموماً، بدأ جلياً أنّ» الزمن في مفهومه الأدبي آلية مهمة لها أبعاد وظيفية وجمالية، فهو يشكل أداة فنية في العمق الشعري، يشكل بها الشاعر منجزه الفني، فيجسدّ مشاعره و أحاسيسه ومادته الأدبية والشعرية الخام من وحي الزمن، إذ تعد الأزمنة وما تحويه من أحداث منارة، يستلهم منها الشعراء ضوءاً لبناء عملهم الشعري»[1]، وفي هذه القصيدة على وجه الخصوص،

وأول صورة من صور الزمان في قصيدة ليس الغريب تتجلى في البيت الثالث من القصيدة إذ يقول:

لا تَنْهَرَنَّ غَريباً حَالَ غُربتِهِ الدَّهْرُ يَنْهَرَهُ بالذُّلِ والمِحَنِ

(١) البناء السردي والدرامي في شعر ممدوح عدوان، صدام علاوي سليمان الشايب، رسالة ماجستير، جامعة مؤته، كلية الأداب، ٢٠٠٧م :٦٧.

فالزمان في هذا البيت هو زمان الغربة، والصورة صورة الدهر الذي هو عموم الزمان بوصفه ذلك الآخر الذي يشتد على الغريب ويضيق عليه، وينهره ويستفزه بالذل والمحن والشدائد والصعاب فالإنسان إذا سافر و أغترب وابتعد عن الأهل والأحباب، بلاد لايعرف فيها صديقاً ولايجد فيها أليفاً يألفه، يكون قد انتقل من زمان الأمن و الاطمئنان بين الأهل و الأحباب إلى زمان الخوف والغربة، ومن زمان الراحة والسعة إلى زمان الضيق والشدة، فيتغير عليه الزمان ويعبس الدهر في وجهه، و إذا به ذلك الآخر الذي انكره بعد المعرفة، وضاق عليه بعد السعة و أظلم في وجهه بعد أن كان نيراً مشرقاً، وهذه حال الغريب في كل الأزمنة.

وقال في موضع آخر:

دَعْني أَنُوحُ عَلى نَفْسي وَأَنْدُبُها وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالحَزَنِ

بعد أن ذكر الشاعر ساعاته و أيامه التي انقضت في غفلة ولهو، وكان فيها سعيداً خالي الذهن من الهموم و الأحزان، إلا أنه كان مفرطاً مفرطاً. أتى على ذكر الوجه الآخر للزمان فقد أدار الدهر له ظهره، وبدت عليه علامات الضعف والوهن وحانت ساعة الحقيقة المرة. وآن له أن يعود أدراجه ليقطع الدهر ويقضي الزمان بالتذكر والتحسر والحزن فكأن الزمان تحول عنده من ذلك الحمل الوديع، والصديق الوفي إلى آخر تجلت فيه صور الحزن والخوف، الخوف من مستقبل مجهول، والندم على ماضٍ ضاع بالتفريط والتقصير.

والصورتان هنا وجهان مختلفان لشيء واحد هو الزمان، فالزمان يمثل ساعة بصورة الآخر المهادن المسالم، ثم ينقلب أخرى ليبدو على حقيقته بأنه ذلك الآخر المهاجم الذي يسلب الإنسان سعادته ويؤدي به إلى غياهب الهموم والأحزان، وكل هذا « جعله زمناً منفلتا من دائرة الواقع، ومفتوحاً للمطلق، وغير مرتبط مباشرة بحدث الصورة وفعلها نتيجة تلاحق الصور، مما يؤدي إلى انزياحات مختلفة، لاتعبر عن شيء مفرد فقط؛ بل تترجم ملامحاً و أحداثاً قادمة لم تحدث بعد، وهنا تكمن جمالية الشعر المتعدد الصور، في استنطاق أزمنة مختلفة تظهر بالتحليل والتأويل»[1].

(١) الزمن وبنية النص الشعري، اسحاق الخنجري، مجلة نزوى، عمان، العدد(٩٦)،٢٠١٩ : ٤.

وأما قوله:

فَلا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيا وَزِينَتُها وانْظُرْ إلى فِعْلِها بالأَهْلِ والوَطَنِ

فقد حصر الشاعر كل أشكال الزمان وصوره في كلمة (الدنيا) ليبين أنه زمان غرور يعطيك من زينته وبهرجه ويغرك بأيام الصفاء و السعادة، وثم يأتي على حين غفلة الصرم والضعف والموت، فالحليم من أخذ من أيام شبابه و صفائها إلى وقت شيخوخته وهرمه ووحدته و انقطاعه.

❖ المكان بوصفه آخر :

المكان ركن مهم في كل عمل أدبي ف» للمكان خصوصية في ذاكرة المبدع، وهذه الخصوصية هي التي تميز مكاناً عن آخر، وقصيدة عن أخرى، تبعاً لحجم الحساسية الشعرية في تفعيل الحيز في هذه القصيدة دون سواها»[1]،ان الشاعر اتسم بالوضوح والتألق؛ لأن أدبه وفكره جاء بلغة صريحة لا غموض فيها ولا التواء، وهذا الامر جاء للمكان الذي عاش فيه والاحداث التي رافت ذلك، وكان استحضار صورة المكان بوصفه آخر في قصيدة ليس الغريب للإمام السجاد جاءت مع مطلع القصيدة في موضع اللحد والكفن , وهي صورة المكان بوصفه ذلك الاخر الموحش الذي تخافه النفس وينخلع منه القلب , ثم نزل الشاعر الى مكان اقل وحشه واخف وطأة , وذلك في وصفه لغربة الانسان في الدنيا في الاوطان والسكن , وانقطاعه عن الاهل والاحباب فقال :

إنَّ الغَرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِغُرْبَتِهِ على المقيمين في الأوطانِ والسكنِ

لهذا يؤكد أنّ جماليات المكان وصوره الطبيعية في الشعر» لم ينصب اهتمام الشعراء بالمكان بمعناه الطبيعي فقط؛ بل توسع اهتمامهم به ليرتبط بعلاقاتهم وتجاربهم الخاصة، من خلال الكشف عن العلاقة الخفية بين المكان بمعناه الطبيعي، وبين الأحداث والذكريات التي ارتبطت بالمكان ذاته، وهذه العلاقة لا تتوقف عند حدود الأشياء أو صور الطبيعة، فهي تغطي كل المساحة الخارجية حتى أصبحت أشد تداخلا وشمولا»[2]،يؤكد الشاعر هنا على حق الغريب على المقيم , فالغريب منقطع محتاج والمقيم لا منقطع ولا محتاج , ولكنه قد ينقطع ويحتاج , وهنا صار لزاماً عليه ان يكون عوناً لأخيه الغريب والفاضل الذي يفرق بين الغريب والمقيم هو الوطن والسكن , فالغريب هو الذي فارق الوطن والسكن والمقيم هو

(١) جماليات المكان في قصائد(من اوراق الموريسكي) لحميد سعيد، عصام شرتح، ٢٠١٥ قراءات : ٢٣.

(٢) جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث» سعدي يوسف انموذجاً»، مرتضى حسين علي حسن، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا، كلية التربية، ٢٠١٦ : ٧٤.

الذي لازم الوطن والسكن . فصار المكان هنا مكانات هو بالنسبة للمقيم نعمة وراحة , وهو للغريب دار وحشه وذلة . فالمكان هنا انتقل من صورة الى اخرى في البيت نفسه , فهو ذلك الاخر الذي يمثل الرفيق الحميم للمقيم وهو نفسه ذلك الاخر الذي يمثل العدو الموحش بالنسبة للغريب .

فحيز المكان ووجوده « هو فضاء تتعدد وظائفه ومعانيه بالنسبة لصاحبه وللآخرين، وكل اعتداء على جزء منه قد يولد ثورة واحتجاجاً، وقد يكون في صورة أخرى دلالة على التقرب والمحبة، وهي معان لاتنشأ من (المكان) أصالة بقدر ما تنشأ عن الظواهر المصاحبة له»[1]، لهذا كان المكان بوصفه آخر للامام واضحاً متجسداً في شعره.

الخاتمة

١. دراسة صورة الأخر في قصيدة ما تبأ عن المخيال الذي يتربع في عقل الشاعر تجاه ذلك الآخر، وقد يتنوع الآخر فقد تغدو النفس اخر اذا عانى صاحبها من انشطار مع نفسه، سواء كان انشطارا صحيا أو مرضيا، وفي الحالتين نرى صدى ذلك في أبيات القصيدة.

٢. تحتاج القصيدة إلى دراسة معمقة مع ديوان الشاعر لكي يثبت نسبها المشكوك فيه.

٣. تنوعت صورة الآخر في قصيدة ليس الغريب بين الغربة والحضور والحياة والموت والزمان والمكان، وكان ذلك ظاهرا.

٤. تصلح القصيدة لان تكون درسا وعظيا، كونها تحدثت عن الآخر الموت.

٥. انتشار القصيدة وذيوع صيتها، كونها تحركت في المؤسسة الدينية، ودخلت في أناشيدها ومؤتمراتها وحلقاتها الذكرية.

٦. الحاجة إلى الشعر الوعظي تظل قائمة على الرغم من الصراع الدائر بين أصحاب الشعر المباشر والشعر الفني .

(١) فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب مونسي، دمشق، ٢٠٠١: ١٣.

المصادر والمراجع

١. البناء السردي والدرامي في شعر ممدوح عدوان، صدام علاوي سليمان الشايب، رسالة ماجستير، جامعة مؤته، كلية الأداب، ٢٠٠٧م

٢. التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، أحمد ياسين السليماني

٣. جماليات المكان في قصائد(من أوراق الموريسكي) لحميد سعيد، عصام شرتح، ٢٠١٥ قراءات : جماليات المكان في الشعر العراقي الحديث» سعدي يوسف انموذجاً»، مرتضى حسين علي حسن، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا، كلية التربية، ٢٠١٦ :

٤. الذات والآخر في شعر لسان الدين الخطيب، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، كلية التربية، الباحث عصام حميد حمد يوسف، ٢٠١٣ :

٥. الذات والآخر في شعر لسان الدين بن الخطيب، عصام حميد حمد يوسف الدليمي، جامعة تكريت، جمعة حسين يوسف الجبوري، ١٤٣٤هجري-٢٠١٣م

٦. الزمن وبنية النص الشعري، اسحاق الخنجري، مجلة نزوى، عمان، العدد(٩٦)،٢٠١٩

٧. صورة الانا والآخر في السرد، د. محمد الداهي، ٢٠١٣ :

٨. الصورة الفنية في التراث النقد والفني عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٣، ١٩٩٩٢ :

٩. ظاهرة الانستالوجيا في شعر امرئ القيس ، صديقه جعفري نثرا، مجلة كلية التربية الاساسية للعوم التربوية الاسلامية ، جامعة بابل، العدد ٣٤ ، ٢٠١٨م:

١٠. فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب مونسي، دمشق، ٢٠٠١:

Sources and References

1 .Narrative and Dramatic Structure in the Poetry of Mamdouh Adwan, Saddam Alawi Suleiman Al-Shaib, MA Thesis, Mutah University, College of Arts, 2007

2 .Artistic Manifestations of the Relationship between Self and Other in Contemporary Arabic Poetry, Ahmed Yassin Al-Sulaymani

3 .Aesthetics of Space in the Poems (From the Papers of the Moor) by Hamid

Saeed, Issam Shartouh, 2015. Readings: Aesthetics of Space in Modern Iraqi Poetry “Saadi Youssef as a Model,” Murtadha Hussein Ali Hassan, MA Thesis, Philadelphia University, College of Education, 2016

4 .The Self and the Other in the Poetry of Lisan al-Din al-Khatib, MA Thesis, Tikrit University, College of Education, Researcher Issam Hamid Hamad Youssef, 2013

5 .The Self and the Other in the Poetry of Lisan al-Din Ibn al-Khatib, Issam Hamid Hamad Youssef Al-Dulaimi, Tikrit University, Juma Hussein Youssef Al-Jubouri, 1434 AH - 2013 AD

6 .Time and the Structure of the Poetic Text, Ishaq Al-Khanjari, Nizwa Magazine, Oman, Issue (96), 2019.

7 .The Image of the Self and the Other in Narration, Dr. Muhammad Al-Dahi, 2013.

8 .The Artistic Image in Arab Critical and Artistic Heritage, Jaber Asfour, Arab Cultural Center, Beirut, 3rd ed., 1992.

9 .The Phenomenon of Anthology in the Prose Poetry of Imru’ al-Qais and His Friend Ja’fari, Journal of the College of Basic Education for Islamic Educational Sciences, University of Babylon, Issue 34, 2018.

10 .The Philosophy of Place in Arabic Poetry, Habib Munsi, Damascus, 2001.